فى موكب الذكرى

للأستاذ عفيفى أحمد محمد الساكت العفيفى
مفتش المساجد بوزارة الأوقاف
وشيخ السجادة العفيفية

فى هذه الأيام المباركة الكريمة · تفيض بالبشر قلوب وصدور · وتتهلل وجوه وتبتسم ثغور · اذ ترتفع بذكرى مولد النبى الاعظم · محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه · أصوات جميع المسلمين · فى كل بلد سطعت فيه شمس الاسلام · وتألق نوره · تختلف بهذه الذكرى الحبيبة لهجات · وتفترق ألسنة ولغات · ولكنها كلها مجمعة على إجلال لها · واكبار وتعظيم · بما ورثها الاسلام من عز وفخار · بهذه الذكرى الكريمة ·

يذكر المسلمون · تلك المدنية الشامخة التى أقامها محمد صلى الله عليه وسلم · باسقة الفروع · وارفة الظلال · فى ثلاثة وعشرين عاما · كانت أجدى على الانسانية من طويل سنيها · وأنفع من جميع ما فيها · ويتخذون العبرة من تلك العزيمة الشماء · التى كافحت الخطوب وغالبت الحدثان · حتى كان لها الظفر والفوز المبين · فيدركون أن المجد فى الدنيا ليس طريقا معبدا · وان العز ليس يسيرا ممهدا · وأن على كل مصلح أن يصبر ويصابر ويجاهد ويكافح · حتى يصل الى غايته · أو يهلك دونها · غير مبال تهما تلقى حواليه · أو جماعات تتألب عليه · فان من تعرض لرسالة يؤديها تلقى طعنات الشانئين · وهو الباسم الساخر · وفى حياة الرسول الكريم · عبرة لمن يعتبر · وفيها أسوة المحتسبين الصابرين · كانت مدنية نبى الاسلام الذى نحتفل بذكر مولده فى هذه الأيام · ايمانا وعدلا وحرية وأخاء · ولم يكن فى الدنيا من يعرف هذه المبادىء العالية · ولا من يطمح الى الحياة الحرة الرفيعة · بل كان الناس يفتك أقواهم بأضعفهم ويستعبد غنيهم فقيرهم · يمشى الضعفاء وقد انحنت رؤوسهم ذلا · واصفرت وجوههم رعبا ·· لا يجدون من خوف مأمنا · ولا من ظلم موئلا كانت حياتهم معتركا حاميا · وحربا ضروسا تثيرها بينهم أقل الدوافع وأخف البواعث وفى وسط هذا الضجيج · وذلك الصخب · كانت آهات المتألمين · وصرخات الشاكين تنبعث فى همس وخفوت لا يتردد صداها فى الارض · ولكنها تدوى فى السماء · تطلب من الله أن يرحم عباده · وأن يجعل لهم من هذا الضلال مخرجا · ولهذا الفساد غاية ·· فكان مولد محمد صلى الله عليه وسلم استجابة لهذا النداء ·· وتلبية

لذلك الدعاء . فبعث الله فى الاميين رسولا منهم . يضع عنهم أزرهم والاغلال التى كانت عليهم . ويبين لهم سر وجودهم . واستخلافهم فى الارض ويعلمهم ان لهم رسالة يهدفون لادائها وغاية يعملون من أجلها . ويقص عليهم ما أوحى اليه ربه من الكتاب والحكمة ..

(أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون)

وقد كان ذلك من قبل عنهم مستورا ولهم مجهولا . وكانت حياتهم لا تخضع الا لنزعاتهم . ولا تدين الا لشهواتهم . فليس الخير الا ما أقنع أهواءهم . وأرضى طغيانهم . وليس للحق والعدل حدود مرسومة . أو معالم مفهومة . ولكنه كلمة الاقوياء . ومشيئة الاعزاء .. وهم فى كل زمان ومكان . ينشرون فى الارض الفساد .

لقد بلغ محمد الاربعين . وجاء الوحى الامين . أن أنذر عشيرتك الاقربين فصاح فى قومه . أنى رسول الله اليكم . أن أعبدوا الله وحده . وأن اتركوا عبادة الاوثان . وكانت هذه الصيحة كبيرة عند قوم انقسموا فى الوثنية . وامتزجت بدمائهم حمية الجاهلية فما أن قرعت هذه الدعوة آذانهم . حتى هبوا جميعا يناصبون صاحبها العداء . ليصدوه عن سبيل الله . ويصرفوه عن رشاده وهداه . عندئذ لاقى فى سبيل رسالته من الصعاب . أقسى ما يلاقيه الداعون وقاسى من الشدائد أشد ما يقاسى الزعماء والمصلحون . ولكن نفسه القوية العظيمة . لم تكن لتضعف عما أرادت أو تنثنى عما اعتزمت . أو تقف فى منتصف الطريق . فقد أيده الله بروح من عنده . وأمده بعزيمة ماضية لا ترجع دون أن تنال ما تطلب ومضى فى سبيله لا يتوانى ولا يفتر . ولا ينكص ولا يتردد . يتحمل ضروب الاذى . وصنوف الهوان . ويتعرض لكل زور من القول والبهتان كأنه لم يدع القوم الى النجاة وعبادة الواحد القهار . بل يدعوهم الى المنكرات ويرمى بهم فى هاوية من النار . وهكذا كانت قريش مع محمد وأصحابه .. تسومهم العذاب والاضطهاد . وتسلقهم بالسنة حداد . فيترك لهم الديار . لا متبرما ولا شاكيا . ولكن متحملا صابرا . وظل يكافح كفاحا شديدا . ويناضل نضالا قويا . حتى أصبحت كلمة الله هى العليا . وكلمة الذين كفروا السفلى . وسادت مبادؤه التى أنكرها العرب أولا . ودخل الناس فى دين الله أفواجا . ونشر الله رحمته على العالمين .

لقد أدرك العرب بعد طول العناء وازهاق الارواح وأراقة الدماء . أن محمدا لم يكن يبغى ملكا ولا مالا . ولا جاها ولا سلطانا . وانما يبغى الخير للدنيا . والاصلاح للناس أجمعين . فدانوا بشرعته . وتمسكوا بعقيدته فخلقهم خلقا جديدا . وأصبح أولئك القساة الغلاظ تملأ قلوبهم الرحمة والايثار . وتخضع نفوسهم للواحد القهار . كانت القوة لهم شرعة ومنهاجا فأصبح العدل لهم سنة وكتابا . فالقوى ضعيف حتى يأخذوا الحق منه .

والضعيف قوى حتى يأخذوا له ممن ظلمه وبغى عليه · كانوا اذا شجر بينهم خلاف · احتكموا الى السيوف والرماح · فعادوا يحتكمون إلى كتاب حكيم · تنزيل من رب العالمين · كانوا شيعا وأحزابا · تفرقهم الاحقاد · وتمزقهم الاضغان · بأسهم بينهم شديد فصـــاروا بنعمة الله إخوانا · تجمعهم كلمة واحدة (يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سـواهم) وفتح الله قلوبهم لاكرم الخلال وأشرفها · فضرب بكثير منهم المثل الاعلى فى البذل وانكار النفس فى سبيل الخير العام · وتوطيـد دعائم النظام · وتعلموا شرف السياسة · فلا ختل ولا خداع · ولا انحراف ولا إبتداع · ولا تذبذب ولا تقلب · ولكن سياســـة شريفة نزيهة · ثابتة قويمة · سياسة فاضلة استمدوها من فضائل الاسلام العالية · ومناهجه السامية التى رسمها الرسول قولا · وصدقها عملا · فحقق بها أحلام كثير من عظماء العالم كانوا بها يحلمون ·

من هذه المبادىء القويمة · استمد محمد قوته فى نضاله · وصبره فى كفاحه · فمضى فى طريقه قدما · وكان خلال الحوادث المدلهمة يرى بريق النصر لاشك فيه ولا ارتياب كما يرى القمر ساطعا لا يحجبه سحاب · فلم يخامره يأس · أو يساوره تردد · وقد كتب الله له الفوز ·· ووعـــده بالنصر :

(كتب الله لاغلبن أنا ورسلى أن الله قوى عزيز)

من هذه السيرة العطرة · وتلك الصفاة النادرة · نستمد الهداية فى ديننا · والكفاح لحرية وطننا · ومن تلك الاعمال الخطيرة والمعجزات الباهرة نأخذ الاسوة الحسنة · والدروس النافعة · والعظات البالغة · فنتعلم ونحن نحتفل بذكرى مولد أكرم الخلق على الله · أن العظمة ليست تركة يورثها الاباء للأبناء ·

وان الهداية والتوفيق · هما فضل الله يؤتيه من يشاء · وأن المستضعفين اذا ساروا على الحق والطريق القويم صاروا أعزة أقوياء · وأن كل حرب سلاحها الباطل مغلولة السلاح · ولن يكتب لمشعليها توفيق أو نجـــاح · وأن الصبر على المكاره · والترفع عن الصغائر سمة الخلق العظيـــم · وان التحدى بالباطل وانكار الملموس الواقع صفة الجاهل الذميم · وأن من جاهر بالرأى لا مجاملا ولا مهادنا ، كان النصر له · وأصبحت الصـــعاب لديه مـــذللة ·

سيدى رسول الله : كلما تحدثنا فى سيرتك واتجهنـــا بخواطرنا الى روضتك · تاقت نفوسنا الى أن نلوذ ببابك · ونقف فى رحابك · ضارعين خاشعين · سائلين الله فى ذلة الخاضع · ألا يفتننا فى ديننا ولا فى دنيانا وأن يكلل بالفوز جهدنا ومسعانا · فنرى وادينا موطد الدعائم والمواطنين جميعا فى عز دائم ، ونرى المسلمين فى قوة ومنعة · وسؤدد ونعيـــم ·

(ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) ·